المحاضرة الرابعة عشرة

شرح كتاب الإبانة الصُّغرى للإمام ابن بطة رحمه الله تعالى

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، صلوات الله وتسليماته عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين أما بعد : مازلنا مع الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة للإمام العكبري رحمه الله وطيب ثراه، وصلنا للصفحة ١١٤ فقرة ٢٦ على الطبعة التي معنا : بين موسى وملك الموت عليهما السلام

٣٠٤- قال : والإقرار بحديث موسى عليه السلام مع ملك الموت وأنه _موسى_ **لطمه** _ملك الموت_، قال : **ولا يُرد الحديث المروي فيه، ولا يُنكره إلا مبتدع ضعيف الرأي هكذا قالت العلماء فيمن رده وتوقف عنه،** _ طبعاً هذا بحث من البحوث التي فيها بعض الإشكال عند بعض من لم يراجع أقوال أهل العلم رحمهم الله عز وجل، وكما قال الله عز وجل ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل: ٤٣، لم أسمع آية حديث موقف قاعدة إلى آخره لا أعرف رأسي من قدمي، أسهل محطة أسأل أهل العلم الثقات المشتغلين بهذا العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا الميراث النبوي من وحي القرآن والسنة.

ماهي قصة لطم موسى لملك الموت؟ نحن معنا بحث كبير جداً رسالة دكتوراه بعنوان : أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين جمعاً ودراسة للدكتور سليمان بن محمد الدبيخي، والبحث حقيقة من البحوث الموفقة فيها جهد مشكور جداً وحاجة محترمة، وكلٌ يؤخذ من قوله ويُترك إلا

الرسول صلى الله عليه وسلم، هنا المبحث السادس من مباحث الكتاب فيما يتعلق بباب النبوات، الإيمان بالأنبياء وماحصل لهم وماوردنا من أخبارهم.

قال : المبحث السادس : لطم موسى عليه السلام لملك الموت، قال : وفيه ثلاثة مطالب :

الأول : سياق الحديث المتوهم إشكاله وبيان وجه الإشكال.

المطلب الثاني : أقوال اهل العلم في هذا الإشكال.

المطلب الثالث : الترجيح.

تعالوا لنرى قصة الحديث ونعرف ما الموضوع، يقول هنا : جاء هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وأرضاه في الصحيحين / بخاري ومسلم أصح كتابين بعد كتاب الله جل وعلا من طريقين : الطريق الأول طريق همام بن المنبه عن أبي هريرة، الطريق الثاني عن طاووس بن كيسان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وأرضاه/ طريق همام بن المنبه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال همام بن المنبه : حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا قال : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

« جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لَهُ أَجِبْ رَبَّكَ – قَالَ – فَلَطَمَ مُوسَى عليه السلام عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا – قَالَ – فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لاَ يُرِيدُ الْمَوْتَ وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي – قَالَ – فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ ارْجِعْ إِلَى عَبْدِى فَقُلِ الْحَيَاةَ تُرِيدُ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ ــ ضع كفك على ظهر ثور وهو ذكر البقر ــ فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً قَالَ ثُمَّ مَهْ؟ ــ وبعد هذه السنين حياة؟ــ قَالَ: ثُمَّ الموتُ، قَالَ فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ رَبِّ أَمِتْنِي مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَاللَّهِ لَوْ أَنِّى عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ .وهذا متفق عليه.

والطريق الثاني من طريق طاووس عن ابي هريرة قال : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام . فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت فرد الله عليه عينه وقال ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة . قال أي رب ثم ماذا؟ قال ثم الموت . قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة

رمية بحجر . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلو كنت ثَمَّ، بمعنى هناك يعني لو أني كنت هناك، فلو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر .

ماهي المشكلة في الحديث؟ قد يقول قائل: ملك الموت وعينه فُقِأت وهذا كلام يعقل؟! يقول: استشكل هذا الحديث من حيث أن موسى عليه السلام قد لطم ملك الموت، لم يفعل نبي من أنبياء الله من أولي العزم من الرسل بهذا الصنيع بملك من ملائكة الله؟ يعني لما الأنبياء يفعلون ذلك بالملائكة فكيف يتصرف العامي!؟ هذا معنى الإشكال، جاءه بأمر من أمر الله فيستعصي عليه ولايأتمر له؟ ثم كيف يخالف الملك أمر ربه فيعود إليه دون أن يُنفذ أمره بقبض روح موسى؟ فلماذا أرسله الله؟ أليس ليقبض روح موسى عليه السلام؟ لماذا لم يقبضها ورجع ثانيةً، ماهذا الذي يحدث؟

بعض الجهال يتعامل مع سنة النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الجرأة وهذه السطحية الطفولية، طبعاً هذا لو كان إعماق نظر لو كان عنده توقير للأثر أو نحو ذلك كان سيرد بكلام أفضل من هذا، وقد عَنون الإمام ابن حبان لهذا الحديث بقوله : ذكر خبر شنع به على منتحل سنن النبي صلى الله عليه وسلم من حرم التوفيق لإدراك معناه، أين فاعل شنع ؟ من حُرم التوفيق.

فهنا يوجد نوع من الاستشكال في هذا الحديث، وطبعاً أهل العلم عندهم إجابات كثيرة جدًا على هذا الإشكال الذي معنا، من أجملها ومن أحسنها جواب الإمام ابن حبان رحمه الله يقول : كان مجيء ملك الموت إلى موسى عليه السلام على غير الصورة التي كان يعرفه موسى عليه السلام عليها، ــ مبدئياً كان ملك الموت يغشي الأنبياء عياناً إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يعني من عند آدم عليه السلام إلى سيدنا عيسى وكان ملك الموت يغشى الأنبياء عياناً يعني يعرفون شكله، ويأتي مجالسهم ولما يأتي ليقبض روح إنسان حضر في مجلسه وقبض روح إنسان وصعد إلى السماء، فالأنبياء لايختلف عليهم صورة ملك الموت التي يتصور بها عند نزوله إلى الأرض في مجالس الأنبياء.

فهنا يقول : كان مجيء ملك الموت إلى موسى على غير الصورة التي يعرفه موسى عليها ــ الملائكة تتشكل، أليس جبريل رآه النبي صلى الله عليه وسلم على صورته التي هو عليها له ستمائة جناح مابين السماء والأرض، وكان يأتيه في صورة أعرابي، وكان يأتيه في صورة يحي الكلبي صاحبي آخر، فالملائكة تتشكل بالأشكال الحسنة ــ فيقول : جاءه ملك الموت على غير الصورة التي كان يعرفه

موسى عليها، وكان موسى غيورًا ــ هو فجأة ما الذي حدث؟ سيدنا موسى قفل الباب وجد رجلًا داخل بيته، لايوجد استئذان؟ كيف دخلت؟ ــ فرأى في داره رجلاً لم يعرفه، فشال يده فلطمه، ــ شال بمعنى رفع كما تقول شال الجمل بذنبه يعني يحركه هكذا ــ فشال موسى يده فلطمه، فأتت لطمته على فقىء عينه التي في الصورة التي يتصور بها، ــ يعني الذي أمامه ملك الموت على خلقته الحقيقة ولا متصور؟ متصور يعني متمثل في صورة إنسان فالذي فقئت عينه هي الصورة وليس الأصل.

يقول : فأتت لطمته على فقئ عينه في الصورة التي يتصور بها لا الصورة التي خلقه الله عز وجل عليها... إلى أن قال : ولما كان من شريعتنا ــ التي توافقت مع شريعة موسى عليه السلام ــأن من فقأ عين الداخل داره بغير إذنه، أو عين الناظر إلى بيته بغير أمره، من غير جناح على فاعله، ولا حرج على مرتكبه، للأخبار الجمة الواردة فيه كان جائزًا اتفاق الشريعة بشريعة موسى بشريعتنا، كان جائزاً اتفاق هذه الشريعة بشريعة موسى بإسقاط الحرج عمن فقأ عين الداخل داره بغير إذنه ــ عندنا نحن في السنة في شريعة النبي صلى الله عليه وسلم : من نظر في بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فهدرٌ ، إنسان يتجسس ويتلصص، وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بيته فجعل رجل ينظر من خلل الباب، الباب عبارة عن ألواح غير منطقة على بعضها في فوارق، فرجل ينظر فجعل النبي صلى الله عليه وسلم في يده مضراه يحك بها في رأسه كالشوكة فجعل حيا. يعني كأن النبي صلى الله عليه وسلم يصوب نحو عينه وقال : من نظر في بيت قوم ففقئوا عينه فهدرٌ.

فيوجد تطابق بين شريعة موسى وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ــ، فكان جائزاً اتفاق هذه الشريعة بشريعة موسى بإسقاط الحرج عمن فقئ عين الداخل داره بغير إذنه، فكان استعمال موسى عليه السلام هذا الفعل مباحًا له، ولا حرج عليه في فعله، فلما رجع ملك الموت إلى ربه، وأخبره بما كان من أمر موسى فيه، أمره ثانيةً بأمرٍ آخر ؛ أمر اختبار وابتلاء، فلما علم موسى كليم الله عز وجل أنه ملك الموت، وأنه جاءه بالرسالة من عند الله، طابت نفسه بالموت، ولم يستمهل، وقال: الآن إذاً .فلو كانت المرة الأولى عرف موسى أنه ملك الموت، لاستعمل ما استعمل في المرة الأخرى عند تيقنه به وعلمه، الإمام المازري رحمه الله تعالى من أئمة المالكية الكبار يقول : فإن قيل فقد رجع

إليه ثانيةً واستسلم موسى إليه فدل على معرفته به، قلنا قد يكون آتاه في الثانية بعلامةٍ علم بها أنه ملك الموت، وأنه من قِبَل الله فاستسلم لأمر الله ولم يأته أولاً بآيةٍ يعرفه بها فكان منه ماكان، هذا الجواب الأول.

الجواب الثاني : أنه تصور بصورةٍ بشرية وهي صورة تمثيل وتخييل، وقد لطمه موسى وأذهب عينه التي هي تمثيل وتخييل لاحقيقة ثم أعاده الله إلى خلقته الحقيقة وهذا معنى قوله : فرد الله عليه عينه، هذا تفسير الإمام ابن قتيبة الديناوري رحمه الله وطيب ثراه، بعض أهل العلم كالأشاعرة كفورك وابن عقيل رحمه الله الحنبلي والنووي والمازري أيضاً يقول : أن موسى عليه السلام قد أُذن له بهذا الفعل الذي هو اللطم؛ ابتلاءً من الله لملك الموت، توجيه، بعض أهل العلم يقول : أن هذا كان على طريق التجوز والتوسع في الكلام والمراد أن موسى ناظره فغلبه، كمثل أن تقول : أنا فقئعت عينه يعني أنني هزمته هزيمة شديدة في باب المناظرة وهذا أضعف التفسيرات، وهذا مامال إليه ابن فورك وذكره.

الترجيح هنا يقول : الذي يجب في هذه النصوص الصحيحة : الإيمان بها كما جاءت وعدم ردها أو تأويلها بما يخرجها عن ظاهرها لمجرد استشكالها، فمن ظهر له المعنى فذاك، وإلا فليتهم عقله وفهمه، وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله وإسحاق بن راهويه عن هذا الحديث في جملة أحاديث الصفات فقال أحمد: كل هذا صحيح، وقال إسحاق: هذا صحيح ولا يدفعه إلا مبتدع أو ضعيف الرأي، وقال الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي: ونؤمن بأن ملك الموت أرسل إلى موسى عليه السلام ، فصكه ففقأ عينه، كما صح عن رسول الله، لا ينكره إلا ضال مبتدع راد على الله ورسوله.

وأقرب الأقوال ما تقدم مما ذكر هو القول الأول : وهو أن موسى حينما لطم ملك الموت ففقئ عينه لم يكن يعرف أنه ملك الموت، وإنما ظنه شخصاً معتدياً لأن باب البيت مقفول والثاني يقول له : أجب ربك، بما معناه سلم نفسك، ستموت الآن، وقد دخل داره بغير إذنه،وقد عرف من خلق موسى وخلقه أنه كان شديداً وكان يأخذ بالأقوى فقد دفع القبطي عن الإسرائيلي دفعة مات منها، كان يفصل بينهما فقط فخرجت روحه!! ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ القصص: ١٥، ولما رأى عبادة قومه للعجل في غيابه أخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه وأخوه يسترحمه : ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي

﴿وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾ طه: ٩٤، وألقى الألواح حتى تكسرت وهكذا هاهنا حينما لطم وجه ملك الموت لظنه شخصاً معتدياً، ولما عرف مرة ثانية أنه ملك الموت سلم الأمر لله وطلب قربه من الأرض المقدسة.

ثم يتنقل الإمام رحمه الله إلى مبحث آخر تحت عنوان : النبي والقرين، من النبي؟ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والقرين قرينه من الشياطين

٣٠٥- وقول النبي صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا : وأنت يارسول الله؟ قال : وأنا إلا أن الله قد أعانني عليه فأسلم فليس يأمرني إلا بخير، والمشهد هذا يفيض فيه الكلام. بعض التفصيل للأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر في كتابه : عالم الجن والشياطين، معنا في طبعة دار الوفاء الصفحة ٦٩ كتاب رائع ومهم وسهل العبارة جدًا قريب ومحقق ومدقق فسهل حتى لو أنت مبتدأ، أول نصيبك في العقيدة تكتب سلسلة العقيدة الصحيحة في ضوء الكتاب والسنة، من الكتب المهمة، تقرأه أنت وأهلك في البيت، أنت وأصحابك سويًا كتاب سهل جداً لايوجد فيه أي حاجة صعبة، هنا مبحث من مباحث الكتاب تحت عنوان : طبيعة الشيطان وهل يمكن أن يُسلم؟

قال الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر رحمه الله : أعطى الله الجن القدرة على الإيمان والكفر ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ الجن: ١٤ – ١٥،القاسطون بمعنى الكافرون قال : ولذلك كان الشيطان عابداً من الملائكة ثم كفر، فلما تحول إلى الكفر ورضي به وأصبح محباً للشر طالباً له يتلذذ بفعله والدعوة إليه ويحرص عليه بمقتضى خبث نفسه وإن كان موجباً لعذابه قال ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ ص: ٨٢ – ٨٣،وهذا يكون في الإنسان، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو فسد مزاجه يشتهي مايضره، يُقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ماليس بالحسن.

هذا بالعكس هذا ممكن يحسنه لغيره، تجد بعض الناس عندهم حالات نفسية مضطربة وليسوا أسوياء يحب أن يأكل الطين يحب أن يأكل الميتات يشرب البول يأكل الغائط!! هذا موجود هذه حالات مرضية معروفة جداً وهو لايجد راحة نفسه إلا بشرب البول، هو لايهدأ إلا بذلك، هذا موجود حقيقة لاأمزح، وهذا ليس بالمبالغة فهو موجود حقيقي في بعض الناس وهذا إنسان ممسوخ.

يقول : أن ممكن الإنسان تفسد طبيعته وفطرته السليمة، طبعاً بالمجاورة والمجالسة ومن جاور السعيد يسعد، يقول : وهكذا يكون في الإنسان، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي مايضره، هو المدخن لماذا يشرب السجائر؟! هو يشتهي مايضره، حشاش لماذا يشرب المخدرات؟ ويضرب نفسه بإبر لماذا؟ يشتهي مايضره، يعرف أن حالته مزرية، لكنه لا يستطيع الانتهاء عن هذا، لا يستطيع الحياة من غيرها، لماذا؟! لأجل أن تنسيه همه، وهل يوجد همّ أكثر من الذي أنت فيه؟! هل يوجد أكثر من ذلك وحالتك إلى الأسوء، فهنا هذا الفساد في المزاج وفساد النفسية وفساد الفطرة، يشتهي مايضره ويلتذ بمايضره، بل يعشق ذلك عشقاً يُفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله، وحسبك أن تتأمل في حال شارب الخمر ومدمنها وشارب الدخان، فإن هذين المشروبين يقتلان صاحبهما أو شاربيهما ، ويفتكان بهما ولايستطيعان منهما خلاصاً إلا بشق الأنفس.

سؤال : هل يمكن الشيطان أن يسلم؟ يقول الشيطان الأكبر إبليس لايمكن أن يسلم، أخرج هذا من الحسابات؛ لخبر الله عز وجل فيه أنه سيبقى على الكفر، وأنه سيُخلد في النار، أما غيره فالذي يظهر لنا : أن الشيطان يمكن أن يسلم، بدليل أن شيطان الرسول صلى الله عليه وسلم أسلم، إلا أن بعض العلماء يرفض ذلك، ويقول : إن الشيطان لا يكون مؤمناً كالإمام ابن أبي عز الحنفي رحمه الله في شرح الطحاوية فيقول هنا أسلم : بمعني انقاد بخير، فالقرين أصلاً ما هي وظيفته؟ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ الزخرف: ٣٦، هذا هو فعل وعمل القرين يسدك عن طريق الخير، هذه وظيفته، كل قرين من الجن هكذا.

الصورة الأولى : إن هذه وظيفة القرين وهذه هي طبيعته إنه أصلاً شريك مخالف هو على الضد مما تفعل دائمًا طبعاً في الشر، ليس أنك تكون على الخير، وهو طيب، لا هو في الشر يزيدك شراً وفي

الغي يزيدك غياً، فهنا بعض أهل العلم قال : لما النبي صلى الله عليه وسلم قال: إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير هذه بمعنى أسلم، انقاد لي، فهو كافر لا يعبد الله، سيخلد في النار، سيعيش ويموت كافرًا، لكن من ناحية السيطرة والتأثير على شخصي فإنه يأمرني بخير، وهذا معنى أنه أسلم لي، كأنه أسلم قيادة للنبي صلى الله عليه وسلم فكف عن طريق الإغواء هذه.

وبعض العلماء يروي هذا الحديث بضم ميم أسلم، أسلمُ يعني فأسلمُ أنا من شره، فإذاً فعل أسلم لاعلاقة له بالشيطان نهائياً، أسلمَ هو أسلمُ أنا، وبعض العلماء يقرؤها بضم الميم قلنا فأسلمُ أنا منه، ومع أن شارح الطحاوية يرى أن الرفع تحريف للفظ إلا أن النووي رحمه الله في شرح مسلم قال : هما روايتان مشهورتان، وعزى إلى الخطابي أنه رجح رواية الضم وحكى عن القاضي عياض أنه اختار الفتح وهو اختيار النووي، وممن يرى أن الشيطان يمكن أن يسلم الإمام ابن حبان رحمه الله صاحب الصحيح المعروف : صحيح ابن حبان، قال معلقاً على الحديث : في هذا الخبر دليل على أن الشيطان شيطان المصطفي صلى الله عليه وسلم أسلم، حتى إنه لم يكن يأمره إلا بخير إلا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً، وما ذهب إليه شارح الطحاوية من أن الشيطان لايكون إلا كافراً فيه نظر فإن كان يرى أن الشيطان لايطلق إلا على كافر الجن فهذا صحيح، وإن كان يرى أن الشيطان لايمكن أن يتحول إلى الإسلام فهو بعيد جداً والحديث حجة عليه.

وحسبنا أن نعلم أن الشيطان إبليس الأكبر كان مؤمناً ثم كفر، كان متصورًا منه الإيمان، وحصل بالفعل مدة طويلة من الزمن ، قال : وأن الشياطين مكلفون بالإيمان معذبون على الكفر، فالإيمان والكفر حالتان تعتريان هذا المخلوق كالإنسان سواء بسواء، فإذاً هنا كلام الإمام على ظاهر الحديث كلام صحيح متوافق مع كلام أهل العلم.

ثم سيتكلم عن **ابتداء خلق النبي صلى الله عليه وسلم وولادته**

٣٠٦- قال : وأن نبينا أول الأنبياء خلقاً، وآخِرهم بعثاً، وأن أمه حين وضعته رأت نوراً أضاءت له قصور الشام، وأن نبينا يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، أول الأنبياء خلقاً، هذا إطلاق موهم من الإمام ابن بطة رحمه الله تعالى، وكان أولى أن يفصل فيه

أكثر من ذلك، لأنه لو عنى بالخلق الإيجاد على الصورة التي خلق عليها وبعث فيها، وطبعاً هذا لم يحصل، لأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ادخره في أصلاب الآباء والأجداد حتى ولد في زمنه، وتزوج أبوه بأمه وحملت به أمه حملًا طبيعيًا جداً كأي إنسان، وولدت به ومر بمراحل الطفولة جنينًا ثم وليدًا، ثم رضيعًا، ثم فطيمًا، ثم صبيًا، ثم شابًا، حتى نُبئ على الأربعين صلى الله عليه وسلم، فلو قال إنه خلق بمعنى إنه كان جسمًا وروحًا وأصبح إنسانًا، يذهب ويأتي قبل الأنبياء بأول الأنبياء خلقاً فهذا كلام مردود تماماً.

فإذاً خلقاً هنا ماذا معناه؟ قلنا يمكن أن يكون معنى خلقاً يعني خلق لها تصريفات ثلاثة : خلق بمعنى: **قدر في الأزل**، وخلق بمعنى : **أبرأ من العدم** ، وخلق بمعنى : **صور وشكل**، فممكن نسلم للإمام ابن بطة رحمه الله هذه اللفظة على معنى : قُدر في الأزل، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نبينا أول الأنبياء في تقدير الأزل، يعني هو أول من نُبئ نبياً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم هو آخر الأنبياء بعثاً لأنه جاء في آخر الزمان، طبعاً هذا بالنسبة لعمر الأمة.

هنا نقول هو جاء بهذا الكلام من أين؟ يعني ماهو مستند هذا الكلام في الجملة؟ نقول : يشير هنا إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم قال : إني لنبيٌ وإن آدم لمجندلٌ في طينته، وهذا حديث صحيح، وفي رواية : كُتبت نبياً وآدم بين الروح والجسد، كُتبت: يعني في القدر، وهذه إشارة إلى القضاء السابق، القضاء الذي هو الكتابة، أن الله كتب ذلك في سابق قدره سبحانه وتعالى، وفي رواية أخرى أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمجندلٌ في طينته، وسأنبأكم عن ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، هذا حديث صحيح بالسياق الكامل هذا، إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل في طينته، وسأنبئكم عن ذلك، أنا دعوة إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ البقرة: ١٢٩،وبشارة عيسى ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف: ٦، ورؤيا أمي التي رأت نوراً يخرج منها أضاء له قصور الشام.

٣٠٧- ومن زعم أنه صلى الله عليه وسلم كان على دين قومه قبل أن يُبعث فقد أعظم الفرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الفرية : الكذبة ــ ، **ولا يُكلَّم من قال هذا ولا يُجالَس،** ــ يتكلم عن مسألة : دين النبي قبل البعثة، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُصبح نبيًا ماذا كان دينه؟ كان على فطرة الإسلام وعلى ملة إبراهيم عليه السلام، إذا كان آحاد الناس العاديين الذين لم ينبئوا ولا مؤهلين للنبوة كورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نوفيل كانوا على التوحيد ولم يشركوا بالله آلهة أخرى، ولم يعبدوا مع الله أوثاناً وأصناماً فكانوا على التوحيد، سلامة الإيمان وسلامة الاعتقاد فكيف بنبينا صلى الله عليه وسلم هو أولى وأولى.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية يطرح مسألة : لو سلم ذلك لبعض الأنبياء كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هل يلزم أن يكون كذلك في كل نبي؟ يعني هل يلزم في كل نبي أن يكون معصوماً من الكفر قبل البعثة؟! أم وارد عليه بمقتضى البيئة والمجتمع الذي عاش فيه؟ هو يبحث هذه المسألة ويطرح من خلال هذا البحث سنشاهده في كلام الإمام القاسمي رحمه الله تعالى في : محاسن التأويل، في تفسير قول الله عز وجل ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ الأعراف: ٨٩، عندنا هنا تفسير القاسمي طبعة دار الفكر بيروت المجلد السابع صفحة ٢١٠ ، في تفسير قول الله عز وجل من سورة الأعراف الآية ٨٩ في خبر نبي الله شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

نأتي بالقصة من أولها﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ الأعراف: ٨٨ – ٨٩، هذا هو المبحث التفسيري : لتعودن ما معنى العود : العود يعني إنسان كان في حاجة ورجع لها ثانية، بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا : كأنهم كانوا عليها ثم نجاهم الله سبحانه وتعالى، العلامة القاسمي رحمه الله تعالى وهذا من التفاسير الرائعة جدا تفسير الإمام القاسمي رحمه الله ؛ محمد جمال الدين القاسمي علامة العراق من أئمة السنة والسلفية الكبار رحمه الله وطيب ثراه، هنا تحت عنوان : تَنْبِيهاتٌ :

الأوَّلُ: اعْلَمْ أنَّ ظاهِرَ قَوْلِهِ تَعالى: (أوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا) وقَوْلِهِ: (بَعْدَ إذْ نَجّانا اللَّهُ مِنها) ظاهره يَدُلُّ عَلى أنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ عَلى مِلَّتِهِمْ قَبْلَ البَعْثَةِ، ومَعْلُومٌ عِصْمَةُ الأنْبِياءِ عَنِ الكَبائِرِ، فَضْلًا عَنِ الشِّرْكِ. وفِي(المواقِفِ وشَرْحِها): أنَّ الأُمَّةَ قَدْ أجْمَعَتْ عَلى عِصْمَةِ الأنْبِياءِ مِنَ الكُفْرِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وبَعْدَها، غَيْرَ أنَّ الأزارِقَةِ مِنَ الخَوارِجِ جَوَّزُوا عَلَيْهِمُ الذَّنْبَ، وكُلُّ ذَنْبٍ عِنْدَهم كُفْرٌ، فَلَزِمَهم تَجْوِيزُ الكُفْرِ، وجَوَّزَ الشِّيعَةُ إظْهار الكُفْرِ تَقِيَّةً عِنْدَ خَوْفِ الهَلاكِ، واحْتِرازًا عَنْ إلْقاءِ النَّفْسِ في التَّهْلُكَةِ. ومِثْلُهُ ذَلك في (شَرْحِ التَّجْرِيدِ).

لكن الإشكال هنا على ماذا يدور؟ على مسألة أنه يوجد من حكى الإجماع في العصمة من الكفر قبل البعثة وهذا كلام فيه نظر طبعاً، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى طرح المسألة وذكر الخلاف فيها ونسب العصمة إلى أكثر أهل العلم، فإذاً هناك أناس قالت نعم، ويوجد آخرون قالوا إن إذا سلم في نبي لايلزم منه أن يسلم في جميع الأنبياء، وظواهر بعض الأدلة تقول : أن مقتضى ظاهر الآيات تقول ذلك، لكن الصحيح إنه ليس كذلك، يعني المسألة فيها مورد للخلاف وإن كان بعيداً وإن كان القائل به نادراً قليلاً، إلا أن المسألة ليست مسألة إجماع فعلاً، وهذا له بحث مفرد اسمه: تفسير آيات أشكلت، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وطيب ثراه.

يقول الإمام القاسمي: ولَمّا تَقَرَّرَ الإجْماعُ عَلى ما ذَكَرَ، كانَ لِلْعُلَماءِ في هَذِهِ الآيَةِ وُجُوهٌ:منها: أنَّ العَوْدَ المقابِلَ لِلْخُرُوجِ، هو العَوْدُ إلى تَرْكِ دَعْوى الرِّسالَةِ والإقْرارِ بِها ــ العود من ؛ خرج وعاد، خرج ولم يعد، فإذاً هناك عود مقابل يعني المقابلة اللغوية والمعنوية مقابل للخروج ــ قال : فُالعَوْدَ المقابِلَ لِلْخُرُوجِ، هو العَوْدُ إلى تَرْكِ دَعْوى الرِّسالَةِ والإقْرارِ بِها .والجارُّ والمجْرُورُ حالٌ، أيْ لِيَكُنْ مِنكُمُ الخُرُوجُ

مِن قَرْيَتِنا، أوِ العَوْدُ إلى تَرْكِ دَعْوى الرِّسالَةِ والإقْرارِ بِها، (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) يعني ترجعوا كما كنا لايوجد لانبي، وناس كما كنا زمان، لانبي ولاشيء، وهَذا الوَجْهُ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ المهايِميُّ، وسايَرْناهُ فِيهِ مَعَ تَفْسِيرِ تَتِمَّةِ الآيَةِ.

ومنها: أنَّ العَوْدَ المَذْكُورَ إلى ما خَرَجَ مِنهُ، وهو القَرْيَةُ. والمَجْرُورُ حالٌ كالسّابِقِ، أيْ: لِيَكُنْ مِنكُمُ الخُرُوجُ مِن قَرْيَتِنا أوِ العَوْدُ إلَيْها، كائِنِينَ في مِلَّتِنا. وعُدِّيَ (عادَ) بِـ(فِي) نقول عاد إلى أو عاد ل ، وليس عاد في كَأنَّ المِلَّةَ لَهم بِمَنزِلَةِ الوِعاءِ المحِيطِ بِهِمْ، ومنها: أنَّ هَذا القَوْلَ جارٍ عَلى ظَنِّهِمْ أنَّهُ كانَ في مِلَّتِهِمْ _ كما كنتم تظنون فينا_،أنَّ هَذا القَوْلَ جارٍ عَلى ظَنِّهِمْ أنَّهُ صلوات الله عليه كانَ في مِلَّتِهِمْ لِسُكُوتِهِ قَبْلَ البَعْثَةِ عَنِ الإنْكارِ عَلَيْهِمْ _لأنه قبل أن يُنبئ لم يتكلم مع أحد في حاجة، كان في شأنه على سلامة الفطرة، فكانوا ظانين بمقتضى حال السكوت أنه مثلهم، أنت معانا.

ومنها: أنَّهُ صَدَرَ عَنْ رُؤَسائِهِمْ تَلْبِيسًا عَلى النّاسِ _قالوا هذا الكلام من باب أنك كنت معنا، هل نسيت؟ وهو لم يكن معهم _، وإيهامًا لِأنَّهُ كانَ عَلى دِينِهِمْ، وما صَدَرَ عَنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ عَلى طَرِيقِ المشاكَلَةِ _المشاكلة اللغوية _ومنها: أنَّ قولهُ" لَتَعُودُنَّ " بِمَعْنى لَتَصِيرُنَّ، إذْ كَثِيرًا ما يَرِدُ (عادَ) بِمَعْنى (صارَ)، فَيَعْمَلُ عَمَلَ (كانَ)، ولا يَسْتَدْعِي الرُّجُوعَ إلى حالَةٍ سابِقَةٍ، بَلْ عَكْسُ ذَلِكَ،هو الِانْتِقالُ مِن حالٍ سابِقَةٍ إلى حالٍ مُؤْتَنِفَةٍ مِثْلَ (صارَ).وكَأنَّهم قالُوا –واللَّهُ تَعالى أعْلَمُ–(لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنا، أوْ لَتَصِيرُنَّ فِي مِلَتِنا كُفّارًا مِثْلَنا) قالَ الرّازِيُّ صاحب مفاتيح الغيب التفسير الكبير: تَقُولُ العَرَبُ: قَدْ عادَ إلَيَّ مِن فُلانٍ مَكْرُوهٌ، يُرِيدُونَ: قَدْ صارَ إلَيَّ مِنَه المكْرُوهِ ابْتِداءً _ يعني لم يكن وذهب وعاد ثانية .

قالَ الشّاعِرُ:فَإنْ تَكُنِ الأيّامُ أحْسَنَّ _ من الإحسان_ مُدَّةً إلَيَّ فَقَدْ عادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ، أرادَ: فَقَدْ صارَتْ لَهُنَّ ذُنُوبٌ، ولَمْ يُرِدْ أنَّ ذُنُوبًا كانَتْ لَهُنَّ قَبْلَ الإحْسانِ.ومِنهُ حَدِيثُ مُعاذٍ أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ لَهُ : أعُدْتَ فَتّانًا يامُعاذُ ؟ أيْ: صِرْتَ. ومِنهُ حَدِيثُ خُزَيْمَةَ: عادَ لَها النِّقادُ مُجْرَنْثِمًا، أيْ: صارَ لها كذلك، مُجْرَنْثِمًا. يعني متقبضاً، وفي حَدِيثِ كَعْبٍ:ودِدْتُ أنَّ هَذا اللَّبَنَ يَعُودُ قَطِرانًا، هل كان قطران ثم أصبح لبنًا وسيرجع ثانيةً؟ يعود بمعنى يصير وفي حديث كَعْبٍ:ودِدْتُ أنَّ هَذا اللَّبَنَ يَعُودُ قَطِرانًا، أيْ: يَصِيرُ. فَقِيلَ لَهُ: لِمَ ذَلِكَ؟ قالَ تَتَبَّعَتْ قُرَيْشٌ أذْنابَ الإبِلِ، وتَرَكُوا الجَماعاتِ.يعني

بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم يعني جماعات الصلوات، قالَ الشِّهابُ: إلّا أنَّهُ قِيلَ إنَّهُ لا يُلائِمُ قَوْلَهُ (بَعْدَ إذْ نَجّانا اللَّهُ مِنها) إلّا أنْ يُقالَ بِالتَّغْلِيبِ فِيهِ، أوْ يُقالَ: التَّنْجِيَةُ لا يَلْزَمُ أنْ تَكُونَ بَعْدَ الوُقُوعِ المَكْرُوهِ، ألا تَرى إلى قَوْلِهِ: (فَأنْجَيْناهُ وأهْلَهُ) ومِنها: أنَّ العَوْدَ يُطْلَقُ، ويُرادُ بِهِ الِابْتِداءُ. حَقَّقَهُ الرّاغِبُ والجارَبَرْدِيُّ وغَيْرُ واحِدٍ. وأنْشَدُوا قَوْلَ الشّاعِرِ:وعادَ الرَّأْسُ مِنِّي كالثَّغامِ، يعني صار، أو ابتدأ كونه كذلك.

ومَعْنى الآيَةِ: لَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتِنا، وقَوْلُهُ تَعالى (إنْ عُدْنا) " أيْ إن دَخَلْنا –كَذا في (تاجِ العَرُوسِ) طبعًا من المباحث المهمة بحث طويل لكنني أحببت أن أدخل إليك لفظة **أو لتعودن في ملتنا** ليس على ظاهرها وطبعاً نبي الله هذا كله دفاع من جمهورأهل العلم على أن نبي الله شعيبًا كان على سلامة الفطرة وعلى ملة التوحيد ملة إبراهيم وما أشرك بالله عز وجل يوماً، هذا في غير النبي.

ثم سيتكلم على بعض الخصائص النبوية المحمدية قال :

٣٠٨- ونقول أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان مختوناً مسروراً، _ المختون معروف بقطع القلفة على رأس الذكر، الختان المعروف، مسروراً يعني السُرَّة مقطوعة، يعني الإنسان ينزل من بطن أمه السرة متصلة، ثم تقطع القابلة أو الطبيبة الحبل السري هذا، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم نزل جاهزًا أصلاً مختونًا ومسرورًا مقطوع السرة، ولكن هذا لم يثبت به حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان موجوداً في بعض كتب السيرة.

٣٠٩- وكان صلى الله عليه وسلم يرى من خلفه كما يرى من بين يديه_ وهذا نص جواب الإمام أحمد رحمه الله وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه بعد أن أقيمت الصلاة فصفهم فاستقبل القبلة ثم التفت إليهم وقال : أترون قبلتي هذه؟ والله مايخفى عليّ ركوعكم ولاخشوعكم وإني لأراكم من وراء ظهري ، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: خلق الله عز وجل له إدراكاً في قفاه، فكان يرى من خلفه كما يرى من بين يديه، وهذه من الخوارق ومن البراهين التي أيد الله بها نبينا وخصه بها صلى الله عليه وسلم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم